

# المثقف بين حلم التفسير والإحباط

## قراءة بنوية لرواية "ثرثرة فوق النيل"

### طلال حرب

اليأس من إمكانية التوصل إلى نتيجة جذرية وحاسمة. عناصر هذه البنية وعلاقتها يحكمها قانون صارم: الاحباط. هذه الخيبة المدمرة التي ترخي ثقلها الكريه على كافة التفاعلات، مبيدة كل أمل يجروء على التبرعم. وهذا الاحباط ليس عرضياً أو أنياً أو غريباً، بل هو ينغرس في بنية المجتمع أفقياً وعمودياً، إذ أنه يطبع بطابعه المجتمع المصري اليوم، كما كان في الماضي، وعبر سيرورة التاريخ بكامله. «ثرثرة فوق النيل» هي رواية الاحباط: كيفية تغلغله وخلخلته لأي دعوة، لأي مشروع إيجابي حتى توصله إلى تدميره. إنها رواية يائسة، تطمح عبر تشریح بنية المجتمع وثورته وثواره إلى أن تقدم صورة حية لهذا الاحباط الذي يدمر أكثر الأفراد تحمساً للعطاء ورغبة في بناء المستقبل، دون أن تخفي شعورها المسبق بالاحباط وإيمانها العميق بفشل مشروعها التحريضي البناء، وضياعه الآتي بلا ريب.

#### ٢- أشخاص الرواية

ينقسم أشخاص الرواية، من حيث الأهمية، إلى قسمين:  
أ- الشخصيات: وهم الأشخاص الذين يلعبون دوراً أساسياً ويتطورون خلال السياق فتتغير مواقفهم مع سيرورة الأحداث.  
ب- المفاهيم: وهم الأشخاص الذين يجسدون مفاهيم معينة في المجتمع أو عنه، فهم لا يتطورون ولا يتخذون إلا مواقف محددة لهم. إنهم مسطوحون أو بالأحرى ثابتون في مواقف معينة، ذات دلالة، فهم أشخاص البعد الواحد.  
أ- الشخصيات:

١- أنيس زكي: رجل في الأربعين، ينتمي إلى أسرة ريفية، جاء إلى القاهرة ليكمل دراسته في الجامعة، لكنه لم يستطع ذلك لأسباب منها الفقر. ماتت زوجته وعديله وابنته هنية بمرض واحد في شهر واحد، فعاش وحيداً، محروماً من المرأة حتى في عالم العوامة. حصل ثقافة واسعة في مختلف الميادين وتوظف

نشر نجيب محفوظ أهم رواياته قبل عام ١٩٦٥، تاريخ صدور رواية «ثرثرة فوق النيل» التي نقدم رؤية لها في الصفحات التالية. وقد صوّر في رواياته الخالدة «خان الخليلي» و«زقاق المدق» و«القاهرة الجديدة» و«اللس والكلاب»، بالإضافة إلى ثلاثيته الشهيرة، المجتمع المصري، وسلط الضوء على بنيته وتطلعاته ومشاريعه البديلة. فنجيب محفوظ الأديب، كغيره من المثقفين، حل عبء التطلع إلى النهضة والمجتمع البديل اللذين كانا ولا يزالان حلماً مقتصرًا بشكل أساسي على المثقفين.

ولكن ماذا استطاع نجيب محفوظ أن يفعل؟ هذا الأديب، الشاهد، الداعي، الذي ارتفع بالرواية العربية إلى مركز رفيع، ماذا استطاع أن يؤثر في مجتمعه؟ ماهي الخطوة التي أحدثها أو ساعد على إحداثها؟ لا ريب أن ثورة ١٩٥٢ كانت أهم حدث في تاريخ الشعب المصري بل العربي. ونجيب محفوظ الأديب الشاهد، الذي كتب قبلها، كتب أيضاً بعدها بثلاث عشرة سنة رواية «ثرثرة فوق النيل» وقبل حدوث هزيمة حزيران ١٩٦٧ بسنتين، فإذا وجد في مصر في هذه الفترة؟ أين أصبح الشعب المصري من حلم النهضة؟

ما هو موقع المثقفين ورأيهم فيما أحدثته الثورة؟ هذا هو ما مجدثنا عنه نجيب محفوظ في روايته «ثرثرة فوق النيل».

#### ١- قانون البنية

تقدم رواية «ثرثرة فوق النيل» رؤية للمجتمع المصري، تطمح ألا تكون رؤية للمجتمع العربي فحسب بل للمجتمع العالمي. في هذه الرؤية تطلعننا عناصر المجتمع وعلاقاته وتفاعلاته وتطلعاته، ويتم التركيز على تفاعل- تيار الفعل الإيجابي الذي يطمح أن يتوصل إلى العطاء والخلق، وتيار اللافعل الذي يجسد

بوزارة الصحة. شاهد الثورة تحوّل عن مسارها واحلامه تنهار فلجأ إلى التحشيش والرؤية العبثية.

٢- سماره بهجت: فتاة في الخامسة والعشرين، مجازة في اللغة الإنجليزية. طبع التفوق بطابعه دراستها وعملها كصحافية، وهي تتطلع الآن إلى الأدب فتحلم بكتابة مسرحية. تؤمن بالعقل والإرادة والفعل الإيجابي والحب.

٣- رجب القاضي: ممثل سينائي في الأربعين من العمر. جميل، جذاب، زير نساء بكل معنى الكلمة، يمكث مع المرأة التي يدعي حبها إلى أن يعثر على امرأة جديدة، ناجح اجتماعياً ومشهور فنياً، لكنه مع ذلك يمضي ليليه في العوامة.

ب- المفاهيم:

١- عم عبده: رجل عجوز، من الصعب تحديد سنّه، خادم العوامة وحارسها، ضخّم الجثّة قويّ البنية يجوز دائماً على اعجاب الجميع، رجل المواقف المتناقضة. فهو يؤمّ المصلين في المسجد ويشترى لأفراد العوامة المهدّرات، ويغيّر ماء الجوزة ويفتش عن مومس لأنيس، حتى وإن كان قد توفّضاً للصلاة.

٢- ليلي زيدان: امرأة في الخامسة والثلاثين، معتدلة القامة، ذهبية الشعر، متخرّجة من الجامعة الأميركية، تعمل مترجمة بوزارة الخارجية. مثقفة ومتحرّرة. جاء بها رجب إلى العوامة وبقيت فيها. دفعت غالباً ثمن تحرّرها إذ بقيت عانساً رغم جمالها ومؤهلاتها. عضوة في مجلس التحشيش.

٣- سنية كامل: امرأة متزوجة ولها بنت وعدة أولاد، تؤمن بمجربيتها وكرامتها. كلما خانها زوجها هجرته وخاتته مع صديقها علي السيد. تتوق إلى رجل يحبّها ويحترمها. وهي أم تحب أولادها ولا تساهم حتى وهي غارقة في «غيبوبة الحب والسطل»، كلما عادت إلى العوامة، تنضم إلى مجلس التحشيش.

٤- سناء الرشيدي: فتاة دون العشرين، سمراء، تدل ملاحظتها على الخفة. طالبة في كلية الآداب، قسم التاريخ. وتطمح إلى أن تصبح ممثلة. جاء بها رجب إلى العوامة فانضمت بسرعة إلى مجلس التحشيش.

٥- أحمد نصر: موظف ذو مركز هام ودراية عميقة بالخبرات التجارية من بيع وشراء. متزوج وله ابنة، لا يحون زوجته أبداً. مؤمن يصلي ويصوم وهو في الوقت نفسه من أعضاء مجلس التحشيش.

٦- مصطفى راشد: محام معروف، ساخر وخفيف الروح. متزوج من مفتشة بوزارة التربية، لكنه لا يحبها ويقول إنه يفقد النموذج المفضل من النساء. من أفراد مجلس التحشيش.

٧- علي السيد: ازهري النشأة، متخرج من كلية الآداب ويتقن اللغة الإنجليزية، له زوجتان، القديمة من القرية والجديدة من القاهرة. ناقد فني معروف لكنه «يقيم أسسه الجمالية على المنفعة المادية، ولا يقول الحق إلا إذا خان الحظ، فينقلب هجاء ساخراً بلا رحمة» يحلم بمدينة خيالية فاضلة، من أفراد مجلس التحشيش.

٨- خالد عزوز: أديب من كتاب القصة القصيرة، يؤمن

بمذهب الفن للفن ويدعو للإباحية. متزوج وله ولد وبنت، وهو عشيق ليلي زيدان منذ أن تركها رجب. يعيش حياة رغدة من دخل عمارة ورثها.

٩- رؤوف: ممثل جذاب وجميل. خطب سناء بعد أن تحلى عنها رجب الذي أكد أن الزواج لن يتم. من الذين يحششون، لكنه ليس من أفراد المجلس.

١٠- موظفو وزارة الصحة: نموذج لموظفي الدولة من المدير العام إلى رئيس القلم إلى الكتبة والساعي. يقومون بعمل روتيني تافه. وينشطون ساعة المغادرة. يلاحظ تسلّط الرئيس وترتف المرؤوسين. يتحاشاهم أنيس ولا نلمح أي تواصل بينه وبينهم.

١١- رجل عجوز مجهول الهوية. في الخمسين من العمر، يصدمه رجب بسيارته ويقتله.

بالإضافة إلى الشخصيات والمفاهيم، هناك راء للأحداث لا يمتلك أي وجود مادي، مما يشير إلى كونه الكاتب نفسه، نجيب محفوظ، الذي يلتزم الرواية من زاوية أنيس زكي، مختاراً من أقواله وأفكاره ما يتلاءم ورؤية القصة، دون أي تدخل من جانبه. يؤثر على مجرى الأحداث أو بلورتها.

★ ★ ★

بعد أن تعرّفنا على أشخاص الرواية نستطيع أن نسجل الملاحظات التالية، عن رواد العوامة خاصة:

١- جميعهم مثقفون باستثناء شخص واحد (عم عبده) الذي لا يشارك في التحشيش.

٢- النسبة الكبرى هي الفن، فهناك ممثل وأديب وناقد فني وصحافية ناقدة ذات طموحات أدبية وفتاة ذات طموح تمثيلي. وهو ما يجعل الذين يدورون في فلك الفن نصف المثقفين من رواد العوامة.

٣- جميعهم يعيشون من غير ضائقة مالية، وإذا كان أنيس يتقاضى مرتباً زهيداً فإن اصدقاءه يتكفون بدفع باقي التكاليف.

٤- جميعهم من الطبقات الشعبية.

٥- يطبع الاحباط أغلبهم بطابعه على الصعيد العاطفي أو الاجتماعي أو المادي أو الفكري أو الفني، وهو إن خفي عند بعضهم، فربما لعدم توفر المعلومات وليس لأنه غير موجود، ويرجع ذلك أنه واضح وجلي عند من تتوافر المعلومات عنه كأنيس وليلي زيدان ومصطفى راشد وسنيه كامل.

٦- تتمتع نسبة عالية منهم بمركز اجتماعي لائق وشهرة بدليل استخدام نعت «المعروف» (مع «أل» التعريف).

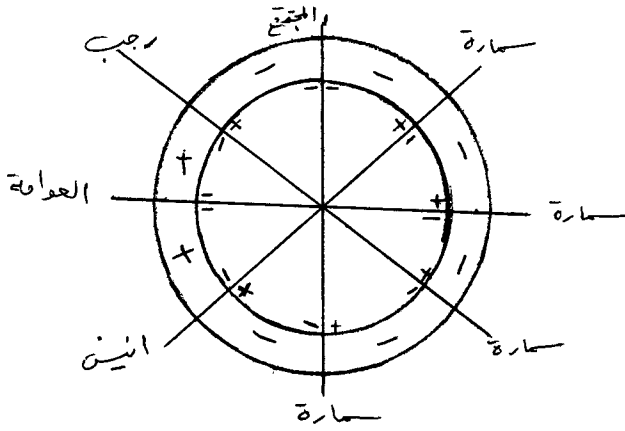
٣- ميدان التفاعلات

تجري أحداث الرواية بشكل أساسي في عوامة راسية على النيل، ولكن ثمة أحداثاً أخرى تجري في المجتمع ونظّم عليها مباشرة أو غير مباشرة على لسان أشخاص الرواية.

٣- ١ المجتمع:

المجتمع الذي يطالعنا هو المجتمع المصري، وتتعرف على

- ٦- تدعو لتبني الروح العلمية وتعتبر أن العلم هو طابع العصور الحديثة كما كان الدين طابع العصور القديمة.
- ٧- تقوم ثورتها على محاربة الاتجاه العبثي ودعوة الأفراد إلى الفعل الإيجابي.



#### ٨- دراسة وضع سارة يوضح على الشكل التالي:

فسارة التي تعتبر عالم العوامة وضعية سلبية تعيق حركة المجتمع العمومية المتجدرة، تثق بنفسها وبمنهجيتها ثقة تامة، وهي تعتبر أنيس كالعوامة سلباً محضاً، بينما ترى في رجب جانباً إيجابياً تراهن عليه في تحويله إلى البطل المنشود. هذه الرؤية تظهر تمتع سارة بوضعية قوية جداً، إذ هناك ست علامات إيجابية (+) إلى جانب علامتين سلبيتين (-).

٣- ٢ العوامة: راسية على شاطئ النيل بين تهديدين: الغرق والكفر أو الغرق في الدنيا والغرق في الآخرة، تفتح على حديقة صغيرة من جهة وعلى النيل من الجهة الثانية. وبالرغم من وجود ثلاث غرف فيها، فإن جميع الأحداث فيها تحدث في مكان مفتوح، في الشرفة حيث يعقد المجلس، في زمان حيادي هلامي يقع في حقيقته خارج أي زمن، آملاً أن يؤسس زمانه الخاص ولكن بلا فائدة، فهو يتأثر بشدة بالزمان السلبي الذي يهيمن على المجتمع.

في العوامة شيء من التعاون والتآلف بين أفرادها الذين يحاولون أن يرفعوا العين اللاحق ببعضهم من ذوي الدخل القليل، ولكنهم غير متساوين، فبعضهم يحظى بوضع أكثر اشباعاً وبعضهم يفرق في الحرمان. ولكنهم بشكل عام يعيشون في عالم أكثر رقة وأقل قسوة. المجلس الذي ينعقد ليلاً في العادة، نجد فيه عدداً من المثقفين الباحثين عن متنفس لهم ومهرب من الثقل الذي يسحق الذات والمجتمع، بل يدمر العالم بأسره، مما أدى بهم تحت وطأة الاحباط المرعب، إلى الايمان بلاجدوى القيام بأي عمل، فما هو قائم كان وسيبقى أبداً.

- أنيس زكي:

بطل هذا المحور بلا شك، فهو أغنى شخصية في عالم العوامة

مدينة القاهرة التي تجري فيها الأحداث فيما ترد إشارة بسيطة عن الريف المصري، وما نراه من المجتمع هو أماكن مغلقة... مكاتب الوزارة حيث يعمل أنيس. غرفة سكنه أثناء تعلمه في القاهرة بعد قدومه من الريف. وإذا طالعنا أمكنة عامة مفتوحة مثل شارع النيل أو طريق سفارة، فإن انقطاع العلاقات بين أفراد العوامة أو بالأحرى أنيس وأفراد المجتمع يحيله إلى مكان مغلق تحتنق فيه الحياة وتحنق رواده. وهذا المجتمع يعوم في زمن سلبي تماماً. فمع أنه يؤرخ لفترة تالية للثورة التي طرحت الاشتراكية بكل ما حملته من آمال في بناء مجتمع أكثر عدالة وسعادة، نراه يشير إلى تحويل مسار الثورة وخنق كل الطموحات التي تخلقها الشعارات، مما يعيد وضع المجتمع في السياق السلبي العام الذي يسبح فيه ماضي هذا المجتمع وحاضره ومستقبله على ما يبدو.

معالم هذا المجتمع سوداء كالحة، فالثورة التي انتظرها المجتمع، اضحت وسيلة البعض لتحقيق المكاسب الهائلة، وبدلاً من تأمين العدالة، فرض القمع والإرهاب فحفل المجتمع بالأكاذيب والنفاق والتزلف والانتهازية والوصولية، بانتظار غد مشرق لن يأتي.

في هذا المجتمع، تُسحق المرأة سحقاً تاماً، فهي كما تبدو لنا إما فتاة متحررة تدفع غالباً ثمن جرأتها على كسر القيود التي يكبلها بها المجتمع: عدم الزواج والذبول في الظل، وإما زوجة يجمع معها زوجها زوجة أخرى ويخونها أيضاً، أو تموت من المرض مع ابنتها دون أن يستطيع زوجها أن يفعل شيئاً. وإذا كانت سارة خارج هذا الإطار فلأنها خاضعة لقيود المجتمع من جهة، فلا تتحرك إلا ضمن الحدود المسموح بها، ولأنها أيضاً غير مرتبطة برجل. الاستثناء الحقيقي هو زوجة أحمد نصر ولكننا لا نعلم عنها إلا القليل جداً، وهو أن زوجها رجل مؤمن ولا يخونها مطلقاً.

صورة الرجل لا تقل سواداً عن صورة المرأة: فهو إما ذئب كرجب، أو قذر كهلي السيد، أو انتهازي كخالد، أو متزلف كجمهور الموظفين، أو متسلط كالمدبر العام أو مسحوق كأنيس.

- سارة بهجت: بطله هذا المحور بلا شك، فهي تجسد قمة الطموح إلى الفعل والتأثير بالشعب في محاولة جاهدة لبعث الشعلة في أفئدة ابنائه وإعادة بنائه، إن على صعيد الفن عبر كتابة مسرحية تحارب اللافعل والشعور بلاجدوى القيام بأي عمل أو بمقارعة أهم أركان هذا التيار، تيار اللافعل واللاجدوى، المتمثل في عالم العوامة. فما هي أهم مميزات هذه البطله؟

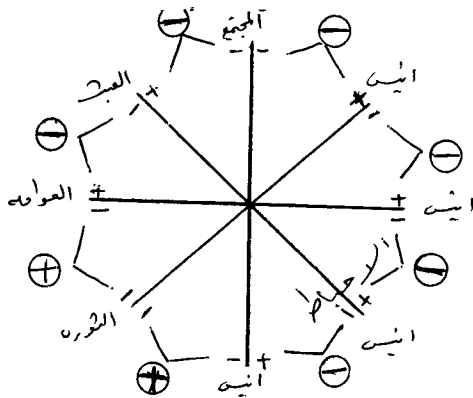
- ١- فتاة مثقفة.
- ٢- صحافية نشيطة ذات طموح أدبي.
- ٣- تؤمن بالحب ووقديته ولكن ضمن الحدود المسموحة.
- ٤- لا تقدم منهجية أو نظرية متكاملة، مما يعني أنها لا تمتلكها أو أنها تتبنى نظرة الثورة القائمة.
- ٥- تلح على العقل والإرادة.

الحالية.

٧- احباط عالمي: بعد يأسه من مجتمعه، رنا أنيس إلى الخارج، إلى العالم الرحب فوجد الوضعيه نفسها، استغلال وتعدُّ وظلم، فالعالم بأسره قائم على هذا الأساس الدامي.

٨- احباط انساني: في قمة بحثه، وصل أنيس إلى الإنسان، إلى كيفية وجوده ومعنى وجوده وغايته، فلم يجد أي أمل له، بل لم يجد أي أمل لأي كائن حي، فهو يسير بخطاه نحو الموت في عالم ماهيته الفوضى «والصرخة التي هزئت من كمال الأفلاك» (ص ١١٨)؛ حتى الهاموش يندفع إلى المصباح بشكل يدعو للعجب. وهكذا نفهم صرخة أنيس الفجائية: «لماذا توجد حركة؟ وأي حركة...» (ص ١٥٦). ما دام الموت والدمار والظلم والاستبداد بانتظار الجميع. لكن أنيس، في هذه الظلمات كلها، يتوقف عند نقطة أخيرة يرفض رفضاً باتاً التحلي عنها: ثورتيه. فهو يصير عليها إصراراً شديداً، فهو إذ فشل في تحقيق مبادئها في مجتمعه، فإن عالم العوامة والتحشيش، يؤمنان له فلتاناً دائماً من جلاديه، وغيباً عن عالم صدمه بواقعه القاسي ولم يترك له أي أمل بغد أفضل. وبقدر إحساسه بأساوية الوضع، كان لجوؤه إلى المخدر، وبما أن أحساسه كان كبيراً يقارب الاستحالة، فإن تأثير المخدر عليه كان يمتد طوال اليوم فلا يكاد يتحرر منه لحظة. لإيمانه العميق بلاجدوى أي عمل. فكل ثورة، كل رفض لن يؤدي إلا إلى نتيجة سلبية، وهو ما حدث عندما قابل المدير العام وهو متحرر من تأثير المخدر.

أنيس رجل مبادئ، لكنه تأكد أن أي عمل لن يؤدي إلى نتيجة ايجابية، لفرديته، وبما أنه غير مستعد أن يتخلى عن مبادئه، فهو يلجأ إلى المخدر كي يخمد انفاس ثورته (فالمخدر طبياً كان أم غير طبي يقوم بتعطيل قوى ومنع الاحساس بأمر). لكنه حتى تحت تأثير المخدر، لا يرحل إلى عوالم سعيدة بل يتعمق في أزمته ويزداد انسحاقاً، فتكسب لائحة احباطاته احباطاً جديداً، وتكتمل الدائرة التي تلتف حوله، وتحبسه داخلها.



وفي الرواية كلها، وهو شخص ريفي جاء المدينة، كي يتابع تحصيله العلمي في الجامعة، لكنه فشل في ذلك لأسباب منها وضعه الاجتماعي البائس. لكنه إن فشل في نيل الشهادات فقد نجح في ميدان الثقافة، فقد عرف من معينها، ومن شتى فروعها تقريباً فتوفرت له ثقافة واسعة وعميقة أفقياً وعمودياً. وهذه الثقافة جعلته لا يتحسس فقط بشكل عميق ومتميز وضعه كفرد في مجتمع وفي العالم وكإنسان، بل مسؤوليته الكبرى تجاه ما يحدث والدور الذي يجب أن يقوم به. ولكن الاحباط المدمر والشامل طبع حياته. ومن ثم شخصيته بطابعه، فقد كُتِل أعماله وجهوده وأحلامه. وفيما يلي محاولة لتلمس احباطاته:

١- إحباط جامعي: وهو أقل أشكال احباطه قساوة، إذ استطاع أن يتلافاه بتحصيل ثقافة واسعة، ولكن عدم حصوله على شهادات جامعية أثر تأثيراً كبيراً على وضعه الوظيفي وبالتالي الاجتماعي والنفسي.

٢- احباط عملي وظيفي: عمله في وزارة الصحة حصل عليه بمساعدة أحد أساتذته، أي أنه لم يتوظف بناء على مؤهلاته، كما أن نوعية العمل وماهيته صدمتا طموحه وطاقاته، فإذا هو قابع في دوامة، تدعي أنها حركة، بينما هي عبارة عن دائرة تعيد المرء دائماً إلى حيث انطلق. فلا حركة للصادر والوارد، بل عليه أن يعيد ما كتب، وهو قادر على إعادته حتى غيباً، مما يشير إلى تفاهة العمل وشدة تكراره، بحيث أنه قد حفظه عن ظهر قلب.

٣- احباط عاطفي: فقد ماتت زوجته باكراً جداً، هي وطفلته في شهر واحد، من مرض واحد فعاش محروماً من المرأة في المجتمع، وتابع مسيرة حرمانه في العوامة. فكلما اقترب من امرأة تصرخ في وجهه «لست بغيماً» فيعود إلى البغايا باحثاً عن لحظة من اللذة، لا يصفها أبداً، مما قد يعني عدم حصوله على أكثر من إخذاع لعاطفته.

٤- احباط ثوري: لقد شارك أنيس في التظاهرات، وكاد يُقتل يوماً في سبيل الثورة والاشتراكية، وإذا به يفاجأ بعد تمام الثورة أن لا اشتراكية هناك بل كذب وزيف وسرقة المكاسب وثروات الشعب مجدداً. فإذا كانت هذه الثورة التي حلم العديد بها لم تسفر عن نتيجة ايجابية تذكر فأية ثورة ستستطيع تحقيق احلام الشعب؟

٥- احباط اجتماعي: المجتمع بكامله خنوع إلى درجة التواطؤ. فلا أحد يتحرك، لا أحد يرفض، الكل ينتظر، يتزلف لرئيسه، يكذب، يغش، يتعمر، يعهر تاريخه في سبيل البقاء والمنفعة المادية الفردية، بانتظار (أو بدون انتظار) فجر لن يأتي.

٦- احباط تاريخي: ثقافة أنيس الواسعة برهنت له أن ما يعاينه، ليس حالة فريدة فهو، كانسان مصري، عاش دائماً في الوضعية نفسها، إذ أن تاريخ بلاده تاريخ دام مليء بالظلم والعهر واللاعداله، منذ أيام الفراعنة وكليوباتره وقصتها مع أباطرة الرومان إلى هارون الرشيد والماليك، وصولاً إلى الفترة

يجسد مفهوماً عن الشعب المصري أو رؤية له، يحتوي على جوانب مهمة جداً يجب التوقف عندها:

١- عم عبده هو الذي يشتري المخدر ويجده بشق النفس ويمتنع بظهره البريء عن رجال البوليس، فهو يساعد على إيجاد عالم العوامة.

٢- عم عبده لا يعمل بل يعيش لقاء خدمته لأسياده وهو يتزلف إليهم كي لا يطردوه فينقطع رزقه، إنه يقول بكل صراحة «أنا خادم السادة» ص ١٨.

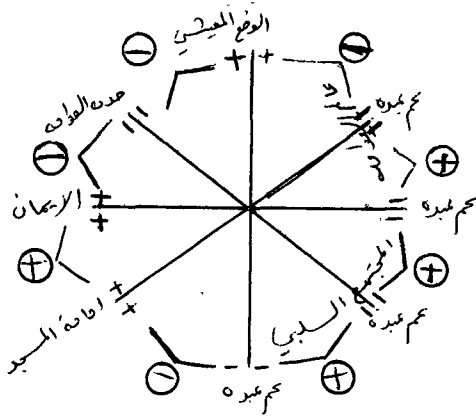
٣- عم عبده المؤمن والذي يؤم المصلين في المسجد لا يتورع عن شراء المخدر وعن التفتيش عن مومس لأنيس، حتى وإن كان قد توفراً استعداداً للصلاة.

٤- يعترف عم عبده أنه الحبال والفناطيس وأن العوامة تغرق إن سها عنها.

٥- كان عم عبده سيفرق العوامة ويقتل بالتالي أنيس مع الجميع، فالشعب عادة لا يهتم بحقيقة المشاكل، بأسبابها ومثيرها الحقيقيين، بل يفضل أن يتخلص من الذين يثيرون الشعب ويعكرون بالتالي صفو حياته وأمنه، بدلاً من أن يبحث عن الحقيقة ويقف إلى جانب العدل أو على الأقل إلى جانب مصلحته الحقيقية.

٦- عم عبده، المؤمن الذي يرى كل ما يجري في العوامة، لم يقل إن الشيطان قد لعب بأفرادها إلا عندما تشاجر رجب وأنيس، أي عندما تهددت مصلحته هو وأمنه. فأنكشف أمر رواد العوامة يتلوه أنكشف أمره هو ودوره فيها.

٧- من الإشارات البالغة الدلالة أن عم عبده يحضر القهوة لأنيس الثائر ويصر على أن يشربها لتهدئته أي لإزالة كل الرفض الذي أعلنه أنيس، ولإعادته إلى خموله الذي يعيد أمن عم عبده، دون أن يدري أن في ذلك عبوديته. مما يدل على عمق استلاب عم عبده.



- إن دراسة وضعية أنيس توضح السلبية الكبيرة التي يفرق فيها، فهناك ست علامات سلبية (-) وعلامتان إيجابيتان فقط (+) وهكذا يقع أنيس، في هذا المجتمع السليبي، وفي هذه الثورة السلبية، في أحضان العيث الذي يقبه من المساوية المطلقة، كما تؤمن له العوامة توازناً مفقوداً يستحيل العثور عليه خارجها لأمثاله.

٣- ٣ المجتمع - العوامة

قدمت لنا الرواية بيئتين، عالين: المجتمع والعوامة، فما هو طابع العلاقة بينهما؟ نلاحظ أن عالم العوامة، يشبه المجتمع في نقاط كثيرة، ففيه احباط كبير يعصف بالافراد (أنيس وليلى) وانقسام قوي كبير يقسم الأعضاء إلى قسمين، الأول قليل العدد جداً ويعيش في مجبوحة كبيرة (رجب) والثاني أغلبية تعيش في الحرمان (أنيس ومصطفى) أو في مجبوحة أقل بكثير (علي السيد وخالد عزوز) كما نلاحظ وجود الاستغلال والكذب والنفاق (رجب وعلي السيد) فضلاً عن الخوف (الخوف من البوليس) والصعوبة (صعوبة شراء المخدر). لكن عالم العوامة يحتوي أيضاً على جوانب نقيضة للمجتمع، فهو عالم مترجرج، يعيش فوق الماء بينما يرسو المجتمع فوق أرض متينة. والعوامة تتأثر لوقع أي قدم بينا المجتمع ثابت مكين لا يتغير أبداً ولا يتأثر، والعوامة جزيرة صغيرة بينا المجتمع عالم منفتح يتصل بالعالم أجمع، والعوامة مهددة بالغرق والكفر، والمجتمع ينعم بصلاية موقعه وإيمانه، وفي العوامة هامش من الحرية، وفي المجتمع عبودية وانسحاق يهدد كل من يجرؤ على تخطي أبعاده. ولكن الطابع الذي يميز هذين العالمين هو بلا شك طابع التكامل، فعالم العوامة امتداد للمجتمع وإكمال له ولدوره. فالعوامة امتداد للأرض الصلبة فوق الماء، وهي ليل هذا المجتمع وخيال واقعه، وهي هامش حرته الوحيد وسوق استهلاك المخدرات التي ينتجها، فعالم العوامة في عمقه صام الأمان الذي يتيح للنظام أن يبقى، ولذلك نراه يسمح به ويراقب المفيق لا «المسطول»، لأن المفيق هو الخطر الحقيقي.

- عم عبده: إن الشخصية التي توضح العلاقة الحقيقية بين المجتمع والعوامة بكل ابعادها هي عم عبده، فهو أحد افراد المجتمع لكنه يعيش في العوامة، وهو لا يتعاطى التحشيش لكنه يشتريه ويعد ماء الجوزة ويحضر القهوة لأنيس كما أنه يشرف على العوامة ويقبها من الغرق.

شخصية عم عبده تثير الاهتمام لبعدها الرمزي، فهو يمثل الشعب المصري، فالتعابير التي يوصف بها تشير بوضوح إلى أنه نموذج للرجل الشعبي وتجسيد لواقع الشعب، فهو ضخم، ويُسبّه بأنه شيء عريق القدم ولا يستطيع أحد أن يقدر عمره، وقد جاء من مكان ما، و « كان يسمى فوق الأرض قبل أن تغرس أول شجرة في شارع النيل » ص ١٥، وهو قوي جداً لكنه « قوي وضعيف وهو موجود وغير موجود » ص ٦٥. ولو شاء لأغرق الجميع وسلب كل النساء وهو لن يموت كما « أن العالم في حاجة إلى رجل في عملاقته لتستقر سياسته » ص ٣٠. عم عبده الذي

٨ - عم عبده محصور في دائرة نصفها يتشكل من مجتمع سلمي والنصف الآخر من عالم العوامة. وهو ممزق بين خطين أساسيين، الايمان والوضع المعيشي وهو موزع بين إمامة المسجد وخدمة العوامة، مما يجعله في وضع دقيق جداً. فهناك أربع علامات إيجابية (+) وأربع علامات سلبية (-) مما يعني أن أي تغيير يطرأ على وضعية عم عبده قد يؤدي إلى إفقاده التوازن الذي يتيح له الحياة. ومن هنا نفهم جهوده لتثبيت الوضع ومقاومته كل تغيير.

#### ٤ - الوضعيات الثابتة:

في الرواية العديد من الوضعيات الثابتة، التي تحافظ على نفسها خلال السياق، فلا يطرأ عليها أي تعديل. وهذه الوضعيات تكاد تغطي على الرواية وتمنحها طابعها. مع العلم أن هذه الوضعيات الثابتة قد تكون ذات علاقة طردية مع عدد الأشخاص - المفاهيم.

#### ٤ - ١ الثنائيات التكاملية:

٤ - ١ - ١ ثنائية ليلي/ خالد أو الهزيمة/ النصر الممكن. ليلي هي الهزيمة الكاملة، الفتاة التي تخلى عنها حبيبها ومجتمعها وخالد من رواد العوامة، وله فلسفة خاصة ويتوق إلى الاباحية في مجتمع محافظ ومقموع. وهكذا بين الهزيمة الكاملة في الحب والحرية الجنسية للمرأة وبين الاباحية كحل لأزمة اجتماعية تبرز العلاقة بين ليلي وخالد كتجسيد لهزيمة المرء وعدم قدرته على الوصول إلى كل طموحاته، والرضا بالنصر الوحيد الممكن، أي تحقيق جزئي للطموح الذي خضع لتغير كبير في نوعيته وماهيته.

#### ٤ - ١ - ٢ ثنائية سنية/ علي أو الفشل/ الأمل الشاحب.

سنية تجسد فشل المرأة في حياتها الزوجية وتعرضها لحياة زوجها، وعلي لم يجد عند زوجته ما يبحث عنه ولكنها لا يرضيان بالفشل، فلم تقبل سنية بالسكوت على خيانة زوجها بل هجرته ولم يقبل علي بالكف عن البحث عن مدينته الفاضلة. فتخلص العلاقة بين علي وسنية اذن، هذا الفشل المزدوج والتطلع إلى الأمل بعد أفضل، فتعجز سنية زوجها وتأتي إلى حبيبها، ويهجر علي مجتمعهم ويأتي إلى العوامة وإلى سنية، فينعم الاثنان بشيء من الأمل الشاحب، فسنية تأمل أن يطلق علي زوجته (كان زوجها على علاقة بامرأة واحدة) ويأمل علي أن يجد يوماً مدينته المثالية.

#### العناد اليأس

لا يطالنا المجتمع إلا بصورة قائمة سوداء مليئة باليأس والاقلاع عن كل محاولة لتصحيح الأوضاع السيئة، ويعكس هذه الحقيقة نموذجان، رفاق أنيس في العمل الذين تكيفوا مع الوضع، فرضوا بعملهم التافه وتزلفوا إلى رئيسهم في محاولة فردية للنجاح. والمرأة التي انتحرت لخلاف مع عشيقها، معلنة بذلك عدم وجود أي أمل بتحقيق ما تطمح إليه. وفي المقابل تطالنا العوامة التي تمثل محاولة أخرى للخلاص وإن بشكل وهمي، وتقدم نموذجين أيضاً، أولها أنيس الذي يرفض العمل وظروفه ويتابع محاولة الخروج وإن عبر اللجوء إلى المخدر، وثانيها سنية

التي تهجر زوجها عند خيانتها لها وتنتقم لكرامتها عبر علاقتها بعلي السيد في محاولة جديدة للوصول وإن كانت محاولة يائسة. فتجسد هذه الثنائية اليأس والعناد اليأس الذي يرفض الاقلاع عن كل محاولة بل يصر على متابعة البحث رغم قناعته بعدم الوصول.

#### ٤ - ٢ الثنائيات المتماثلة

٤ - ٢ - ١ ثنائية رجب/ سناء، أو الاستغلال والوصولية إذا كان رجب يستغل وضعه كممثل جميل جذاب وحاذق بأمور الغرام والجنس فإن سناء تستغل وضعها كأنتى جميلة ومشتهاة، وإذا كان رجب مستعداً للتعهد بكافة الوعود واستغلال كل فنون جذب الأنتى للحصول عليها وبالتالي التهامها فإن سناء أيضاً مستعدة لاستغلال كل أبوتها طعماً يسهل لها الوصول إلى غايتها، وهكذا يلتقي الإثنان في علاقة حميمة خلال سعيهما للوصول إلى أهدافهما ثم يفترقان عندما تكف هذه العلاقة عن أن تكون طريقاً للهدف المنشود. ويتابع كل منها طريقه بالأسلوب نفسه: الاستغلال والوصولية.

#### ٤ - ٢ - ٢ ثنائية أنيس/ العوامة، أو الوهم.

خروج أنيس من المجتمع وعليه، ولجوؤه إلى عالم العوامة هو كعالم العوامة نفسه وهم، فأنيس يصطدم بعلاقات الكبت والاستغلال والقمع والعنف في عالمه الجديد أيضاً، فالعوامة نفسها التي تطمح إلى أن تشكل عالماً صغيراً يجمع بين افراده تتكشف عن علاقات متناحرة هشة لا تملك أن تقدم بديلاً للمجتمع.

#### ٤ - ٣ الثنائيات التناقضية

٤ - ٣ - ١ ثنائية أنيس/ سناء أو الجماعة/ الأنا أنيس وسناء على طرفي نقيض، فهو ثوري شارك في التظاهرات، أي في إيجاد حل جماعي لطموحاته. وهي يشدها بريق التمثيل ولكن لا نلح أنها تحمل أي رسالة تود أن توصلها إلى مجتمعها بل نشعر أنها تود أن تحظى بنعيم أن تكون ممثلة، فهي اذن تسلك طريقاً فردية جداً، إذ تريد أن تجعل جسدها طريقاً إلى التمثيل، والتمثيل من حيث هو فن الجماعة طريقاً إلى جسدها. فلا يعود هناك أي امكانية للالتقاء بينها وبين أنيس، بل إن الاقتران ميزتها الاساسية، فتتناقض نظرة كل منها إلى التاريخ والمجتمع والمستقبل، ويمتنع أنيس عن مغالبة سناء.

#### ٤ - ٣ - ٢ ثنائية أنيس/ المجتمع، أو الحلم/ الواقع.

أنيس حلم يتبدد كل يوم تحت أشعة الواقع المحرقة، أنيس يطمح إلى أن يصل يوماً إلى مجتمع جديد، وبالتالي إلى معايير جديدة وعلاقات مختلفة أكثر عدالة، والمجتمع يصر على أن يبقى كما هو، فيحافظ على معاييرهِ ويرسخ علاقاته الجائرة. أنيس توق إلى مستقبل مختلف، والمجتمع واقع ماضٍ يتكرر ويأمل أن يتكرر إلى الأبد.

#### ٤ - ٤ الثنائيات التناحرة: سارة/ العوامة، أو الجدية/ العبث

مجيء سارة إلى العوامة لم يكن عابثاً بل كان هادفاً، فهي قد جاءت حاملة معها مفاهيم الجدية واردة الفعل والفعل، لتقارع مفاهيم العوامة العبثية، واردة اللافعل واللافعل، لكنها ليسا على طرفي نقيض، فسارة تعترف أنها تشعر أحياناً بالعبث، كما أنها تلتقي مع افرادها في اعتناق مبدأ اللافعل بعد الجريمة، لكنها لا تتخلى عن دعوتها إلى الفعل والجدية والايجابية.

مجيئها إلى العوامة حول هذه الأخيرة إلى حلبة صراع، فازت سارة في الجولة الأولى عندما جذبت افراد العوامة إلى الخارج وخسرت الجولة الثانية عندما فشلت شخصياً في اتخاذ موقف ايجابي. وإذا كان هذا الصراع قد أسفر عن تدمير العوامة فإن هذه النتيجة ليست إلا جزئية وموقته، فهناك العديد من العوامات راسية على الرصيف، كما أن مجلس العوامة قد يجتمع مجدداً فهو لم يدمر كمفهوم، ولم يقتل من رؤوس أصحابه. وهكذا حافظت هذه الثنائية على طابع التناحر بين الجدية والعبث.

٥- الوضعيات المتفاعلة:

٥- ١: الثنائيات التالفة

٥- ١- ١ ثنائية أنيس/ سارة، أو الفعل المنهزم

كانت وضعيتا أنيس وسارة متناقضتين في البداية، فسارة أكملت دراستها الجامعية وتعمل في ميدان الصحافة وتطمح إلى أن تكون أديبة، في حين أن أنيس لم يستطع إكمال دراسته الجامعية، ويعمل في وزارة الصحة عملاً تافهاً، لا يمت إلى طموحاته بأي صلة، وقد أعلن الكف عن أي مشروع، وراح يمضي حياته ذاهلاً مخدراً قواه، كي لا تنفجر فتودي به.

لكن الاثنان دخلا في علاقة جديدة بعد اقتحام سارة للعوامة واطلاع أنيس على ملاحظاتها وخاصة ما كتبه عنه، فدخل في علاقة متناحرة معها حين رد على ملاحظاتها مؤكداً تفاهتها، ومن ثم طبع التكامل علاقتها عندما دعم أنيس مواقفها ووقف في مواجهة أفراد العوامة، مؤكداً على ضرورة تحمل المسؤولية لينتهي الاثنان بعد ذلك إلى وضعية التائل: إلى الفعل المنهزم. فسارة فشلت في اكمال الخط الذي داومت على رسمه والدفاع عنه والدعوة إليه، وأنيس الذي انهزم سابقاً لم يتلاف الهزيمة الجديدة، بل عاد إلى تأكيد وضعه السابق، وبالرغم من تأكيد سارة أنها عازمة على متابعة الطريق، فإن هزيمتها تنفي امكانية قيامها بأي عمل ايجابي، وهو ما يوضحه تجمدها مع أنيس في الثلاثرة في حلم هذا الأخير.

٥- ٢ الثنائيات التناحرة

٥- ٢- ١ ثنائية أنيس/ المدير العام، أو الثورة/ التسلط الثورة التي نادى بها أنيس ثورة جذرية قادرة أن تغير المجتمع، وعندما خاب أمله، غادر الواقع إلى عالم وهمي، مصراً بذلك على عدم التخلي عن مبادئه، رغم اليأس الكبير الذي يشعر به. أما المدير العام، فهو قمة الاتجاه السلطوي الساعي إلى نجاح الأنا، دون أي اهتمام بالآخرين، فهو لا يهتم بتحشيش أنيس

ولا يزعج منه إلا عندما يؤثر ذلك على تنفيذ العمل الذي يأمر به. أنيس المخدر القوى، الهائم في عالمه الوهمي، لم يخرج عن حدود التناقض مع رئيسه، وإضرار الاحتقار له ولعمله العبثي، حتى صحا ذات يوم، وقد تبدد عالمه الوهمي وتأثير المخدر، فلم يحتمل تسلط رئيسه وانفجر في وجهه ممعماً بذلك التناقض بينه وبين ممثل السلطة، عنصر المحافظة على الثبات في المجتمع.

٥- ٢- ٢ ثنائية سارة/ رجب أو الاحباط المزدوج

السمة التناحرة لهذه العلاقة لم تتغير إطلاقاً، ولكن التغيير طال بطليها. فرجب، على امتداد الرواية، حاول استئالة سارة واقتراسها على عاداته ولم يتوصل إلى ذلك، ربما للمرة الأولى. وسارة، على امتداد الرواية، حاولت اخراج رجب من عالم العوامة ونقل مثلها إليه، عليها تدفعه إلى طريق العمل والمسؤولية ولكن بلا فائدة.

ومع انتهاء الرواية، تكون هذه العلاقة التناحرة قد قادت رجب إلى هزيمة أمام امرأة، ربما كانت الأولى في حياته، وهي الأولى في الرواية، وإلى صدم رجل عجوز بسيارته وقتله وبالتالي تهديد مستقبله الفني والاجتماعي، كما جرّت سارة إلى هزيمة قاسية اضطرت فيها إلى التخلي عن المبادئ التي طالما رددتها سابقاً.

٥- ٣ الثنائيات التناقضية: ثنائية أنيس/ رجب، أو الأصالة/ الزيف

أنيس في الأربعين وكذلك رجب، لكن الأول يقف في الحضيض والثاني في القمة. أنيس المثقف بشكل موسوعي يعمل بمرتب زهيد ويعيش حياته في فقر وحرمان وكبت، ورجب يتقاضى مئات الجنيهات، بل الألوف ويعيش في مجوحة من المال والنساء، فهو إله من آلهة الجنس، يهجر المرأة تلو الأخرى، دون أي احساس أو شفقة. أنيس رجل ينفر الجميع منه ورجب ممثل يتحلق الجميع حوله. بعد جريمة القتل، يظهر رجب على حقيقته البشعة، مجرماً قادراً أنانياً لا يمكنه أبداً أن يكون البطل الذي فكرت فيه سارة، وفي الوقت نفسه، يظهر أنيس إنساناً نبيلاً، يعيش أزمة حقيقية، وبطلاً يكمل الخط الذي تراجعت عنه سارة، فيتصدى لرجب بكل ما يمثله من زيف ودور باهر وبطولة فارغة.

٦- الأنساق:

في الرواية ثلاثة أنساق هي: الاحباط الثوري والعبث والثورة. وإذا كان المجتمع أو العالم الخارجي بكل ما يحتويه من علاقات، هو الميدان الأساسي للنسق الأول، فإن الذات الإنسانية بمبادئها وقناعاتها هي التي تشكل ميدان النسق الثاني، وبما أن الواقع أسود قاس، والذات الإنسانية مهشمة مرحلياً وتاريخياً، فإن النسق الثالث، نسق الأمل بغير مشرق، ومجتمع يتبنى كل الطموحات التي تراود الفرد المصري المهزوم، لا يمكن أن يجد ميداناً له إلا في الحلم.

٦- ١ نسق الفعل الخارجي: الاحباط الثوري

يمتد هذا النسق من الذات الإنسانية، بقناعاتها الأولى إلى قناعات جديدة مناقضة للأولى، مروراً بالمجتمع وقضاياه وطموح الفرد المصري، وصولاً إلى الثورة وما بعدها. وفي هذه السيرورة يبرز الاحباط الثوري، الحدث الأهم الذي شكل الضربة القاضية الهادمة لكل البنيان الحلمي السابق وأساس الواقع الجديد، إنه بعبارة أخرى، نسق سقوط أنيس الثوري وتحطمه. يتألف هذا النسق من ثلاث حركات:

#### ١ - الحركة الأولى: أنيس - المجتمع - الالتزام

أنيس، هذا الريفي الفقير الذي جاء إلى القاهرة ليتابع تحصيله العلمي في ظروف صعبة جداً، أنيس هذا الريفي الممتلئ بالطموح ومحبة الثقافة والعلم والذي، عند فشلته في نيل الشهادات الجامعية، جاب قاعات الجامعة وحصل ثقافة موسوعية. أنيس، هذا الزوج الذي شهد موت زوجته وابنتها في شهر واحد بمرض واحد، بكل ما يعنيه هذا الموت من أبعاد، كاللعدالة الاجتماعية وبؤس الطبقات الشعبية الفقيرة. أنيس هذا، لم يحاول إيجاد طريق فردية للخلاص في مأزقه، ولم يحاول الفرار في الأساليب غير المشروعة ليتخلص من مأساته، بل ادرك أبعاد وضعه، فهو يشكل جزءاً من كل، ومشكلته هي مشكلة العديد من أبناء مجتمعه، فانفتح على المجتمع وقضاياه ومشاكل الطبقات الشعبية فيه. ومن ثم إلتزم بها وتظاهر واعتقل وكاد يقتل في سبيل تأسيس مجتمع جديد.

#### ٢ - الحركة الثانية: أنيس - الثورة الخيبة:

إلتزام أنيس أدى به إلى التحمس للثورة تحمساً كلياً، فوضع كافة آماله فيها، وانتظر أن تكون حلاً جذرياً لما يعاني منه هو ومجتمعه، والثورة المقصودة هنا، كما تدل جميع تفاصيل القصة وتاريخ صدورها، هي ثورة ١٩٥٢ الناصرية الاشتراكية، التي قوضت حكم الملك فاروق وسلطة الانكليز واستعادت قناة السويس، وبتعبير آخر، الثورة التي جسدت حلم كل مواطن مصري وعربي بمجتمع مشرق تزول فيه الفروقات الحادة واللاعادلة الاجتماعية وتنزعه سلطته عن الظلم والعنف والقهر. ولكن سرعان ما تحطمت كل آمال أنيس، إذ لم يحدث أي تغير في المجتمع ولم تحل القضايا المشكو منها وحافظ المجتمع على هويته وبالتالي لم تحتف المشكلات الحادة، بل شاهد أنيس بأمر عينه، كيف عمل رجال هذه الثورة على استغلالها في سبيل أغراض فردية، فتوجه بقلب ممزق إلى قائدها الكبير، يخبره عن خيانة موظفيه وأكاديبهم، طالباً منه التدخل لتصحيح مسار الثورة. مع العلم أنه خاطب هذا القائد الذي أصبح اسمه رمزاً لثورة المجتمع العربي، تحت تأثير المخدر، أي عندما حرره التحشيش من كافة المحاذير، وهي تبلغ من الشدة والعنف أنه لم يجاهر بها، بل بقيت مجرد أفكار عبرت في رأسه، في هذه الحال، لا تعود الخيبة مجرد شعور عابر، بل تكتسب حضوراً لا يرحم.

#### ٣ - الحركة الثالثة: أنيس - العيب العوامة

في مجتمع ينادي بالاشتراكية، وأقصى تهمة فيه هي الرجعية، ومع ذلك تم كل يوم مصادرة مكاسب الثورة وسرقة أموال الشعب الذي يزداد بؤساً، في مجتمع كهذا، ماذا يستطيع أن يفعل كأنيس، يرفض بعناد كلي أن يتحول عن منحاه الاجتماعي إلى منحى ويصر على الابتعاد عن اشكال الوصولية والاستغلال؟ ماذا يستطيع أن يفعل مثقف يفر من حاضره المؤلم إلى ماضيه فيجده حافلاً باحباطات مماثلة وينظر إلى مستقبله فلا يجد أي أمل؟ بل يجد أن العالم بكامله غارق في السواد. في هذه الدوامة، انزلت أنيس إلى العيب، إلى لاجدوى القيام بأي عمل، فلا امكانية للتغيير، فبدت العوامة وعالمها الوهمي الهروبي المنتفس الوحيد والأخير. فالخدرات تؤمن له غياباً دائماً رغم حضوره وتقدم له حلم يقظة يفرق فيه، وسعادة ما في عالم لا سعادة لأمثاله فيه.

#### ٤ - ٦ نسق الفعل الذاتي: العيب

يتمحور هذا النسق حول العيب، ولاجدوى القيام بأي عمل في سبيل تغيير ما هو قائم، ومع أن أغلب الأحداث تدور في العوامة، فإن الأحداث الحقيقية التي تؤلف حركات هذا النسق الثلاث، تدور في الذهن، في العقل حيث يتصادم تياران: الجدية والعيب. وتغدو احداث العالم الخارجي وسائل اقناع وبراهين لهذا التيار أو ذاك على صحة منحاه وقوة مبادئه.

#### ٥ - الحركة الأولى: سارة - المجتمع - الالتزام

سارة فتاة مثقفة وطالبة متفوقة وصحافية ناجحة، هي الأخرى، انغrust عميقاً في بنية مجتمعها، وأوصلها حسها الجماعي الخلاص إلى الالتزام بقضاياه والعمل في سبيل الرقي به، ويتجلى هذا الالتزام في آمالها الأدبية وفي نوعية المسرحية التي تنوي كتابتها وفي اختيارها المسرح بالتحديد.

#### ٦ - الحركة الثانية: سارة العوامة - العيب

التزام سارة، قادها رأساً إلى اقتحام العوامة، في محاولة لتدمير هذا العالم السليبي، وبالتالي التغلب على العيب الذي يهيمن على عقول رواده.

مع دخولها العوامة، تحوّل مجلسها إلى حلبة صراع بين الإدارة والارادة، بين الفعل واللافاعل، وقد تحورت جهود سارة في مقارعة العيب في اتجاهين، يقوم الأول على مقارعة أفراد العوامة لاخراجهم إلى الفعل الحقيقي ومحو الشعور العبثي الذي يعترهم، بينما يتحدد الثاني في كتابة مسرحية تحارب العيب وتدعو إلى الفعل الايجابي في المجتمع المصري كله وربما العربي والعالم أيضاً.

#### ٧ - الحركة الثالثة: سارة - رجب - أنيس

التزام سارة بمجاهة العيب، أوصلها إلى رجب، فهو أقل رجال العوامة تهاقناً على المخدر، كما أنه رجل ناجح اجتماعياً، أي أنه البطل المنتظر والشخصية التي ستساعد في مهمتها، لا



- ٤- عدم وجود تواصل مع رفاق العمل.
- ٥- الزمن: الصباح.
- ٦- يوم كامل تحت تأثير المخدر.
- ٧- استدعاء أنيس زكي.
- ٨- استكانة خارجية وثورة داخلية.
- ٩- افتتحت الرواية جملة سلبية (ابريل شهر الغار والأكاذيب)

#### النهاية

- ١- الإنسان في الطبيعة الأم (الطبيعة التي صنعت الإنسان).
  - ٢- الإنسان الحر الفكر إلى أقصى الحدود.
  - ٣- إنسان لا يعمل، يكتشف عبر التأمل.
  - ٤- انقطاع التواصل مع سمارة.
  - ٥- الزمن: الليل.
  - ٦- يوم كامل بدون تأثير المخدر.
  - ٧- استدعاء أنيس زكي.
  - ٨- ثورة خارجية واستكانة داخلية.
  - ٩- اختتمت الرواية جملة إيجابية (فقبض على غصن شجرة بيد وعلى حجر بيد وتقدم....)
- وبين هاتين النقطتين، امتدت الرواية، وقد تجسدت حركيتها في الحركات التالية:

#### - الحركة الأولى: عالم العوامة العبثي

في هذه الحركة المؤلفة من الفصول الأربعة الأولى التي تصور يوماً كاملاً، يتم تقديم تيار شعاره اللافعال، لأنه لا جدوى من القيام بأي فعل. وهي تبدأ في لحظة نموذجية، تفتتح الرواية، لحظة عمل فرد نموذجي من هذا العالم، مظهرة سلبيته وعمقه من جراء غرقه في برائن التحشيش، أي أنها تبدأ من نتيجة هذا التيار وانعكاساته في قطاع هام من الحياة الاجتماعية: العمل. ثم تقدم لنا مكان التحشيش، فإذا هو عوامة راسية على شاطئ النيل، أي مكان ظاهر من جهة ومنغلق على نفسه من جهة أخرى، فالسفينه كجزيرة فوق الماء أو شبه جزيرة. ثم نتعرف على أفراد هذا العالم ووظائفهم الاجتماعية، فنجد أنهم جميعاً محتومون وبارزون، بل أن بعضهم من المشهورين في المجتمع. ثم يتم تصوير مجلس التحشيش اليومي، الذي تستعمل فيه أداة واحدة «الجوزة»، في ليلة نموذجية، إذ تعود فيها إحدى نساء العوامة إثر تعرضها لأزمة اجتماعية، مما يدل على تأصل عالم العوامة في ذات افراده من جهة وعلى مسؤولية المجتمع في وصول بعض افراده إلى هذا الدرك من جهة أخرى. وفي الليلة نفسها، تنضم فتاة جديدة إلى عالم العوامة مما يدل على حيوية عالم العوامة وامتداده إلى الجيل التالي من المثقفين، كما يوضح لنا هذا الحدث كيفية مجيء النساء إلى العوامة.

#### - الحركة الثانية: تيار الجدّية

تقدم لنا الرواية، في الفصلين الخامس والسادس تياراً نقيضاً

سبياً وأنه قد أبدى الاهتمام بها وادعى حبها. وهكذا نشب صراع خفي خلف قناع الحب والاستلطاف، وأخذ كل منهما يحاول استئالة الآخر إلى موقعه، ويقوم في سبيل ذلك بكل ما يستطيع شرط ألا يتخلى عن المبادئ الأساسية. ولكي يكتسب هذا الصراع أهميته القصوى كان ينبغي أن تخرج سمارة من دور الواعظة المتحنة إلى دور المتحنة، كان من الواجب أن تمتحن جديتها ومبادئها التي تدعو إليها أنصار العبث. وقد قدمت الجريمة التي اطاحت برجل عجوز التجربة المثلى لسمارة، فالقتيل رجل تافه والقاتل حبيبها أو بطلها المنتظر، كما أنها كانت موجودة ساعة القتل ومسؤولة لأكثر من سبب فضلاً عن أن تمسكها بمبادئها سيؤدي بها شخصياً إلى نتائج وخيمة، فإذا تفعل؟ بدلاً من أن تطبق المبادئ التي تنادي بها، انهزمت سمارة واعترفت بأنها تشعر أحياناً بالعبث، فوصلت بذلك إلى البطل الحقيقي في العوامة، إلى أنيس الذي أكمل الخط الذي رسمته مبرهناتاً لها أنه كان بإمكانها أن تتابع طريقها الجدية بدلاً من أن تتخلى عنها في اللحظة الحاسمة. وهكذا أكد العبث تجذره وسقطت سمارة، رسولة الجدية ومقاومة العبث، مغلقة بذلك الرواية على انهزام الفعل الاجتماعي على صعيد الذات، بعد انهزامه على صعيد المجتمع.

#### ٦- ٣ نسق الفعل المستقبلي: الثورة

#### العوامة - عم عبده - الثورة

ليس صدفة أن نسق هذا الفعل لا يدور في المجتمع، إذ لا أمل فيه، ولا في حوار المبادئ الحالية لأنها أيضاً عقيمة، لا تجدي، فالثورة المنشودة لن تتم إلا بأسلوب مختلف كلية. وهو ما عبر عنه حلم أنيس، وليس مسرحية سمارة الهادفة العقيمة. لقد أدرك أنيس أن الثورة الأساسية لن تقوم بها سمارة، كما لم يقم بها هو شخصياً، وأن الذي سيقوم بها هو في الحقيقة عم عبده، ولكن كيف يستطيع ذلك وهو أكثر اشخاص الرواية استلاباً؟ عم عبده الذي يمثل الشعب وقواه الخارقة، هو الوحيد الذي يستطيع أن يؤسس مجتمعاً جديداً ولكن فقط عندما يعي أبعاد عالم العوامة (أنيس) والمجتمع (سمارة) أي عندما يدرك لا جدوى الاتجاه الجدي الحالي ويزلزل الأرض ليهدهما ويبيّن من جديد، عند ذلك سيقوم المجتمع الذي ينتظره الجميع. وبانتظار استيقاظ عم عبده، سيظل تيارا الجدية والعبث يتصارعان دون أية نتيجة، وسيجمدان في مكانيهما دون أن يحققا شيئاً أو يضمحلّا.

#### ٧- حركيّة الرواية

تتحرك الرواية بين نقطتين أساسيتين هما البداية والنهاية وفي كل منها المعطيات الهامة التالية:

#### البداية:

١- الإنسان داخل حجرة مغلقة (أي طبيعة من صنع الإنسان)

٢- الإنسان المقيد الفكر بعمل تافه.

٣- إنسان يعمل.

لاسيما وأنها رائدة في الدعوة إلى المسؤولية؟

- الحركة الخامسة: عقم سمارة

تفتح هذه الحركة مع يقظة أنيس الكاملة، في الفصل السادس عشر، وتحرره من أسر المخدر وبذلك يتساوى مع سمارة في حرية الحركة ويصبح مؤهلاً لدعمها في اتخاذ القرار المطلوب أو لمجابهتها وفضحها في حال تخلفها عن ذلك. وقبل حلول لحظة القرار، يخترق الحركة الخامسة عنصر هام وفريد في عالم الرواية هو حلم أنيس الذي قدم لنا رؤية كاملة تقوم على الأمور التالية:

١- ضرورة العودة إلى الروح الدينية الصحيحة وأخلاقيتها للقضاء على الآفات المستشرية في المجتمع وأهمها السرقة والزنى.  
٢- ضرورة العودة إلى الريف، أي إلى مينوع الأصالة المحلية البعيدة عن زيف المدينة. أي مركز التأثير بالتيارات الخارجية.

٣- ضرورة التحلي بشراصة المقاومة وعدم السقوط أمام الكثرة المناوئة.

٤- مرارة الحياة ومأساتها والأخطار المحدقة بالإنسان، فقد شبهها أنيس بطريق الجريمة.

٥- شعور أنيس العميق بالمسؤولية وتحليه بالنفس الشعبي الجماعي، فقد أشار إلى مسؤوليته في القتل (فصدنا رجلاً) ونقل القتل المجهول إلى صورة زوجته ومن الجدير بالذكر أنها ماتت بمرض، وإذا كان سبب الموت لم يكشف لنا، فهو خطورة المرض أم هو نتيجة لظروف اجتماعية سيئة ناتجة عن عدم اهتمام الدولة برعاياها، فإن عملية النقل وموت الطفلة أيضاً يؤكدان مسؤولية الدولة في ذلك، أو بالأحرى تحليها بالمسؤولية تجاه شعبها، تماماً كرجب.

٦- ما يبحث عنه أنيس هو الخصب غير المصادر «سحابة داجنة» ويكتسب هذا التعبير بعده الكبير عندما نتذكر قصة هارون الرشيد، الذي ورد ذكره في الرواية سابقاً، مع الغيمة أيام القحط.

٧- وعي الشعب المستلب ومطاردته أفراد العوامة، فعم عبده يختلف كلية في الحلم، إذ لم يعد خادم العوامة، بل هو في صحبته: افتح، يشبه أفراد السلطة عند اقتحام مكان مجرمين.

٨- تحجر أفراد العوامة في مواقعهم وعدم امكانية قيامهم بأي دور طليعي، فهم سيداومون على تناول المخدر إلى حين مطالبتهم بدفع ثمن ذلك وتحميلهم مسؤولية ما يقومون به (القبض عليهم) أو إلى حين اعتبارهم مرضى ينبغي علاجهم بالقوة.

٩- سقوط سمارة القادم في دائرة اللافعل، إذ أنها ستصبح من أفراد العوامة وستتجمد في دورها السليبي إلى حين قيام الثورة - الزلزال الذي سيدمر البناء الحالي.

بعد هذا الحلم، يجابه أنيس المدير العام، ويثور في وجهه رافضاً السماح له مجدداً باهانتها، مؤكداً بذلك على ضرورة القيام بما يجب القيام به مها كان الثمن. ولكن سمارة التي عرفت قصته مع المدير العام، لم تتخذ القرار المطلوب والمنسجم مع ما كانت

للتيار الأول، تياراً جدياً يدعو إلى الفعل الايجابي ونبذ اليأس واعتناق الأمل، وتتعرف إليه، كما تعرفنا على التيار الأول، في المكان النقيض لميدانه، مما يؤمن معرفة موضوعية به. سمارة بهجت، ممثلة هذا التيار، على العكس من أنيس زكي، تتمتع باحترام وتقدير في مركز عملها، كما أنها تقوم بدور ايجابي وفاعل في مجتمعاها، ولكنها تجمع في شخصيتها نقاطاً مماثلة لأفراد العوامة من حيث نوعية الثقافة والعمل الصحفي والطموح الأدبي والتحرر النسائي، مع العلم أنها أقل حدة من أفراد العوامة وربما أقل عمقاً وهو ما اهتموها به. فالتياران إذن، ينتميان إلى الشريحة الثقافية نفسها والتطلعات الاجتماعية الثورية مما يعمق النظرة إلى هذه الفئة من المثقفين.

- الحركة الثالثة: المجابهة

لم يكن هناك مفرٌ من أن تشب المجابهة بين التيارين، وهذه المجابهة في بعدها الأول مجابهة الجدية للعبث ومحاولتها القضاء عليه، وفي سبيل ذلك، لم تتبع سمارة طريقاً سطحية، كأن تبلغ البوليس مثلاً لأن ذلك لن يتيح تدمير عالم العوامة في نفوس أصحابه، بل اختارت خطتها الجذرية ذات الشقين.

أما البعد الثاني لهذه المجابهة، وهو البعد الأعمق والأغنى، فهو تلمس أبعاد هذه الجدية بل محاكمتها وكشف قدراتها واصلاتها. وهو ما نجده واضحاً في النقاش الذي ادار دفته الحامي (مصطفى راشد)، وفي اتهامات افراد العوامة لسمارة، وفي تعليقاتهم على آرائها وخاصة في ملاحظات أنيس حول مسرحيتها وما تضمنته من تحليل، وأخيراً البناء الروائي حيث نجد أن سمارة لم تكتب شيئاً تحت العنوان الذي حددته: ملاحظات هامة. مما يعني أنها لا تملك الملاحظات بعد، ومما قد يفقد الكلمات التي سبقت العنوان أهميتها، لأنها جاءت قبل العنوان وليس بعده.

الحركة الرابعة: المحك

لمعرفة قدرات تيار الجدية على إحداث التغيير الذي يزعمه، والذي يئس أفراد العوامة من حدوثه، كان لا بد من تجربة تضع هذا التيار على المحك، فكانت الجريمة النموذجية، في ظروفها وابعادها وتفاصيلها، قابلة إلى حد كبير لأن تفسر بشكل عيشي، إذ لا يوجد أي سبب آخر غير قوة المبادئ وحرارتها تحمل صاحبها على الاعتراف بها، فشككت بذلك التجربة المثلى لاتخاذ قرار جدي في وضع يسهل الانزلاق فيه إلى القرار العيشي، أو في الحقيقة يسهل فيه إيجاد العذر للفرار من قرار ينسجم مع المبادئ ولكن يكلف الكثير من الثمن، وعلى هذا فإن لجريمة هي المحك لسمارة وليس لأفراد العوامة، فهؤلاء عابثون واتخاذهم قراراً ينسجم مع مواقعهم السابقة ليس مستبعداً أو غريباً، أما الموقف الذي ستخذه سمارة فهو الموقف الهام. فإذا تقرر تلك التي تنادي بالجدية وبالمعل والإرادة والمسؤولية؟ ماذا ستفعل وكل أقوالها السابقة ومبادئها تدفعها إلى موقف ينسجم مع طروحاتها، أي إلى الاعتراف بالجريمة وتحمل المسؤولية كاملة،

٨ - ١ - ٢ : الأسم

أكثر ما يلفت الانتباه ويدعو إلى التوقف عنده أسماء العلم التي نستطيع قسمتها إلى فئتين: أولاً أسماء اشخاص الرواية، وثانياً الأسماء التي ترد في خواطر أنيس زكي وتداعياتها.

أ - أسماء الشخصيات.

أ - ١ : أنيس زكي: الاسم « أنيس » يعود إلى الجذر الثلاثي: أن، س الذي يثير تداعيات عن الأنس والإنسان والمؤانسة. مما يدل على إمكانية الوثوق به والسكون إليه من جهة وعدم ذاتية صاحبه بل رمزيتيه وشمولية دلالاته من جهة ثانية. و « زكي » في الوقت الذي تشير فيه إلى الرائحة الطيبة العطرة إذ ترتبط بكلمة زكي الرائحة، فإنها تدل على النمو والزيادة والخصب، كما أنها تختلط مع كلمة « ذكي » المفوطة بالعامية، مما يشحنها أيضاً بمفهوم الذكاء.

أ - ٢ : سارة بهجت: تثير كلمة سارة مجزرها؛ س، م، ر تداعيات عن السم والسمر مما يدل على أنها تحمل حديثاً ما تريد قوله، وعلى هويتها المصرية العربية. وكلمة « بهجت » مجزرها: ب، ه، ج تثير تداعيات عن السرور والفرح والنضارة مما يجعل من « سارة بهجت » رمزاً للبحث عن السرور والنضارة.

أ - ٣ : رجب القاضي: أول ما تثيره كلمة « رجب » أنها اسم أحد أشهر السنة الهجرية وهي بدورها تثير انطباعات بأنها قد تراجعت في الاستعمال أمام السنة الميلادية، وكلمة « القاضي » مع وجود أداة التعريف تكتسب أبعاد اللقب، كما أنها تستدعي في الذهن امرين: النزاع والحكم فيه فضلاً عن أن ميزة القاضي الأساسية هي العدل. فهل يعني اسم « رجب القاضي »، شخصاً غير عادل، أو حكماً ما عاد يستطيع البت بالنزاع؟

أ - ٤ : من بين أسماء الاشخاص - المفاهيم يبدو اسم « عم عبده » أكثرها إيجاءً. فالعم هو شقيق الأب، وزوج الأم، ووالد الزوجة فهو في جميع هذه الدلالات يدل للأب أو شبيه به. كما أن كبر سنه يساهم في اعتباره بديلاً للسلف ككل. وعبده هو اختزال لإسم « عبدالله » حيث تم حذف كلمة (الله) والاستعاضة عنها بضمير الغائب. وفي هذا الاسم أبعاد دينية ودلالات خضوع واستكانة. وفي بقية الأسماء نلاحظ الأمور التالية:

بعد ديني: مصطفى، أحمد، علي.

بعد عقلي: راشد، الرشيد.

سلطوي: السيد، المدير العام ورئيس القلم (يلاحظ عدم وجود اسمين لها بل تم الاكتفاء بلقبها).

الرفعة والشأن: عزوز، نصر، كامل، سنية وسناء.

بعد عاطفي: ليلى.

ونشير إلى تشابه بين اسمي سناء وسنية مما يدل على وجود صفة مشتركة بينهما.

ب - ورد في الرواية العديد من الأسماء التاريخية المعروفة، وجميعها ترتبط بنقاط سلبية في التاريخ كالأستبداد أو الظلم أو

تدعو إليه، رغم أن أنيس برهن لها، عبر تصديده للمدير العام أن على المرء أن يكون أميناً لمبادئه مهما كان الثمن. ورغم أنه عندما شعر بتردددها وميلها إلى عدم اتخاذ القرار المطلوب، برهن لها مجدداً إمكانية قول ما يجب قوله. وبذلك ارتفع الاحباط إلى مستوى الشمول بجمعه البقيضين.

- الحركة السادسة: الاصرار

تشكل هذه الحركة خاتمة الرواية، وهي تتألف من المقطع الأخير في الفصل الأخير، وتشير إلى أن مأساة أنيس ليست شخصية فقط، ولا مصرية ولا عربية أيضاً بل عالمية، على مستوى الإنسان، من حيث هو إنسان، وتؤكد اصرار هذا الإنسان قديماً وحديثاً على ارتياد الأفاق مهما كانت النتيجة.

وهكذا في الوقت الذي تغلق الرواية كل أمل، وتعلن اليأس من أي فعل إيجابي إذ يصم أنيس أذنيه عن كلمات سارة للمرة الأولى، وينطلق في تداعيه الباحث عن أساس مشكلة الإنسان. وهو التداعي الأخير في الرواية أي قمة البحث وأساس المشكلة كلها، وفيه تعود الرواية لتفتح الأمل عبر العودة إلى رواية ما تسميه الأديان « الخطيئة الأصلية » التي هي في أساسها محاولة لتجاوز الحدود المفروضة، مشيرة إلى أن طبيعة الإنسان تدفعه دفعا إلى ارتياد الأفاق مهما كانت المخاطر ومهما كان الثمن، وبعبارة أخرى، مهما بلغت درجة السوء في هذا المجتمع فإن الإنسان لا يملك إلا أن يحاول اقتحامه للخروج منه إلى ما بعده. ومن الضروري أن نشير إلى أن أنيس لا يذكر الرواية الدينية لبدء الحياة البشرية على الأرض بل يتبنى وجهة النظر الداروينية المادية وذلك طبيعي لأنه يود الرد على الإحباط الذي اغرقته منه الثورة الاشتراكية فكان رده من طبيعة الفعل واكتسب بذلك قوة أكبر.

٨ - في الأسلوب

٨ - ١ ملاحظات حول لغة النص

٨ - ١ - ١ المفردات

مفردات الرواية مستعملة بمعانيها الاصلية المتداولة في اللغة اليومية، وبين افراد الشعب، وهي تقترب أحياناً كثيرة من اللغة العامية بتعابيرها مثل: صح النوم، عقبالك، يا مجتتك. ولا تشحن بأبعاد رمزية إلا فيما ندر: ابريل شهر الغبار والأكاذيب، فالغبار هنا من حيث هو قذارة ومانع للرؤية شديد الإيجاء بصعوبة الرؤية الصحيحة في المجتمع الذي تصوره الرواية. ورغم أن بين افراد الرواية محامياً وناقداً وصحافية و مترجة وأديباً وممثلاً فإننا لا نقع إلا قليلاً على مفردات تنتمي إلى هذه الميادين بل مجرد مفردات عادية يستعملها الإنسان العادي، وأكثر ما نقع على مفردات خاصة في خواطر أنيس، حيث تطالعنا بعض التعابير الطبية: المادة الطحلبية، والغدة النخامية، كما نثر على بعض المذاهب الفنية كمنهج الرسم التجريدي والتكعيني والسريري والوحشي. وبعض الألفاظ الثقافية، مثل العبث واللامعقول ودائرة المعارف البريطانية...

العنف، أو جابهت نقاطاً سلبية في المجتمع - خوفو - فيكتوريا (ملكة العصر المحافظ المشحون بالتقاليد) فرعون المتأله، ابراهيم باشا - انطونيو - كليوباتره - هارون الرشيد - يوليوس قيصر - نيرون. لويس السادس عشر - قمبيز (فاتح مصر) - تحتمس الثالث - حثشبوت - الحاكم بأمر الله - برومسيوس (مسطولاً) - نابليون (يتهم الانجليز بتسميمه) - جينيه (الفلسفة التي تجمع بين البرقة والسجن والشذوذ الجنسي على طريقة جينيه ص ١٧) وورد ذكر النبي يونس والنبي يوسف والحكيم «ايو - ور» (الذي نصح أحد الفراعنة) والمعري والحيام وبيكت، وأدم، وحواء، كما ذكر بعض اسماء الجنس التي ارتفعت إلى مستوى العلمية وهي شديدة الاجاء .

- ١- المالك (المستبدون).
- ٢- الخلفاء (الذين أودى الافراط بحياتهم).
- ٣- الفرس (الذين دالت دولتهم).
- ٤- التتار.
- ٥- الانجليز
- ٦- الاميركان.

٧- العرب، ولم يذكر الاسم صراحة بل استعيض عنه بالقول «أمة عريقة في النفاق» ص ٩٣ .

وأشير بشكل سلمي إلى العصور: الحجري والروماني والواقعي والملوكي والهجرة إلى القمر. وإلى بعض الأحداث التاريخية: مثل تدهور الحضارة الرومانية والغزوات الاسلامية والحروب الصليبية ومحام التفتيش ومصارع العشاق والفلاسفة والصراع الدامي بين الكاثوليكية والبروتستنتية وعصر الشهداء والهجرة إلى أميركا.

وهكذا نجد أن السواد الذي يشكل سمة المجتمع المصري منذ أيام الفراعنة إلى اليوم، هو أيضاً سمة العالم أجمع قديماً وحديثاً .

٨- ١- ٣ الصور الجمالية: لغة النص العادية لا تمتلك صوراً جمالية كثيرة، فليس هناك لغة شعرية والصور المستعملة صور بسيطة ولذلك فإن اللغة تقترب من المنحى التقديري والاستعمال الأولي والبسيط للجمل الفعلية والأسمية. الشيء الوحيد المميز، هو ايراد اسماء وشخصيات ومواقف من التاريخ في سياق النص مما يثير الدهشة والغرابة، ولكن تأملاً كافياً في النص يظهر وجود منطقتي عقلائي وراء كل ما يرد فيه، مما يتنافى مع كون هذه الأحاديث شطحات فكرية تحت تأثير المخدرات، ولكنه ينسجم تماماً مع رسالة البنية التي لا تريد التحدث عن مجموعة من الحشاشين بل تشريح مجتمع معين في تطلعاته النهضوية. وفي هذا الإشكال مفتاح الرواية .

٨- ٢ آلية القص

تتألف الرواية من ثمانية عشر فصلاً مرقمة في النسخة المصرية (طبعة مكتبة مصر بالفجالة) وغير مرقمة في النسخة اللبنانية (طبعة دار القلم، ١٩٧٢). وغير معنونة في النسختين. باستثناء الفصل العاشر الذي يحمل شبه عنوان: «مشروع مسرحية». وتقول «شبه عنوان» لأنه العنوان الذي صدرت به

سارة كلماتها التي يقرأها أنيس .

نجد في هذه الفصول التي تدور حوادثها بمعظمها في عوامة راسية على النيل، وصفاً لثانية مجالس تحشيش ولتاسع لم يتم بل أسفر عن رمي كافة ادوات التحشيش (ونعلم أن المجلس الثاني عقد بعد أسبوع من المجلس الأول أي بعد ستة مجالس لم تصفها الرواية). وقد بدأت فصول الرواية بلحظات زمنية على الشكل التالي: الفجر مرة واحدة، الصباح مرة واحدة، الظهيرة مرتان، الغروب ثماني مرات، الليل ست مرات. واختتم كل من المجالس الستة الأولى بتداع، فيما اختتم السابع بخوار والثامن بخروج من العوامة وانتهى التاسع بتداع ينهي الرواية بكاملها، التي بدأت في فترة الصباح، في مكان العمل وخلالها واختتمت في الليل. في العوامة، وخلال خطر الصرف من العمل. فامتدت بذلك بين صباح سلمي وظلام يحيط بالأرض والإنسان.

٨- ٢- ١ التداعي

في الرواية نوع من التفكير الطليق، لا سيما وأن الشخصية الأساسية أنيس زكي مدمنة على التحشيش، ولكن هذا التحليق الفكري ليس هذياناً أو تهويماً بل هو تداع يثيره موقف معين، لذلك يجب التفتيش في الكلمات التي تسبق كل تداع للعثور على مفتاحه أو بالأحرى السبب الذي أطلقه وحدده. وهو في الغالب موقف يحتوي على خلل ما، لطخة سوداء أو سلبية مشكو منها إذ أنها تتعارض مع مبادئ أنيس زكي. فالعلم عبده، رجل التناقضات، المؤمن والقواد، يفرق أنيس زكي في تداع عن هارون الرشيد، الخليفة الذي كان يقتل لأتفه الأسباب والذي ألقى آل رسول الله في السجن. مما يشكل قمة في تصوير الحال التي وصل إليها الدين ويكشف حقيقة المنعوتين بالايان.

كما أن سناء التي تحلى عنها رجب فجلست حزينة، أثارت فيه تداعياً عن رجل عزيز أصابه الذل، وبما يدفع الوضع إلى أعلى قمة له، تشبيه رجب بقمبيز المحتل، وأنيس نفسه بفرعون المهزوم. كذلك في الخاتمة، عندما كانت سارة تتحدث عن مشكلة أنيس زكي الشخصية، أثارت فيه تداعياً هو الآخر قمة للوضع المعاش، إذ أنه صور مأساة الإنسان بشكل عام منذ الأزل وإلى الأبد، فهو غير قنوع ويطمح دوماً إلى اختراق الحدود المفروضة عليه. هذه التداعيات، التي تمتد من جملة إلى صفحة أو أكثر، بحسب الموقف وخطورته وكمية المخدر التي تؤمن كلما زادت تحليقاً أبعد، تصور نقاطاً سوداء في تاريخ الإنسان المصري خاصة، إذ نجد فرعون المهزوم أمام قمبيز وتحتمس الثالث الذي تسلبه اخته حثشبوت الملك، وفرعون الذي لا يدرك حقيقة ما يجري من مظالم في البلاد، ويونس الذي أنقذه الحوت من القرية الضالة ويوسف الذي ترتبط صورته بصورة السنوات العجاف في مصر. كذلك نجد كليوباتره أمام يوليوس قيصر المنتصر ومع أنطونيو المهزوم، وهارون الرشيد الطاغية. ومن الجدير بالذكر أن هذه الصور ليست منتزعة من التاريخ تماماً، بل هي صور معقولة، قد تكون حدثت، ولكن المهم أنها مركبة تركيباً حليماً للدلالة على وضع آني، مما يكسبها طابع الرؤيا من جهة وطابع

فضح الحاضر والماضي معاً وبصورة فعالة من جهة ثانية. كما أن اعتماد هذه الطريقة في التعبير يشير إلى وجود مخدور يمنع أنيس زكي من الكلام مجرية، ونستطيع أن نستشف طبيعة هذا المخدور في دلالات هذه التدايعات، فهو مثلاً استبداد السلطة في تداعي هارون الرشيد، وهو وجود حواجز بشرية بين الرئيس والمرؤوسين في تداعي الحكيم أيوب - ور. تكذب على الأول وتمتع عنه حقيقة ما يجري وتظلم الآخرين وتستغل الثورة لمكاسها. وهو كشف البعد العميق لحدث ما. كما في تشبيه حالة ليلي زيدان التي آمنت مجرية المرأة وطبقته، براعية غم في عهد خوفو لدغها ثعبان وقضى عليها. ولا ننسى أن الثعبان هو بديل للقضب. ومشكلة ليلي أن رجب افقدها عذريتها. مع العلم أن التداعي قد يكون لأكثر من سبب. كأن يكون لسببين أو للأسباب كلها.

٨ - ٢ - ٢ - ٢ الحلم

إلى جانب أسلوب التداعي، تستخدم الرواية أسلوباً آخر هو أسلوب الحلم الذي يحدث في ظروف خاصة جداً:

١ - يتم هذا الحلم وأنيس متحرر من تأثير المخدر.

٢ - يتم نهراً وفي مكان العمل وخلال.

٣ - يأتي هذا الحلم في قمة التوتر والبحث عن موقف ينسجم مع المبادئ، ولذلك يكتب هذا الحلم معالم الرؤيا واستشراف المستقبل، ويصبح مضمونه الحقيقة الآتية أو تحسباً لطموح الأنا وتفاصيل تطلعاتها ورؤيتها لحل المشكلة العالقة. ومن الجدير بالذكر أن توقيت الحلم ذو أهمية قصوى، إذ أنه سبق قرار سارة فسمح له موقعه أن يعرض على محك التجريب. وقد برهنت الأحداث على صدق النبوءة التي يتضمنها بخصوص سارة، وهو ما يكسبه قوة أكبر في الأمور التي لم تقع بعد.

٨ - ٢ - ٣ ضمير القصص

طريقة القصص التي تستعمل صيغة المفرد المذكر الغائب تشير إلى أن هناك راوياً للأحداث هو الأديب نفسه. ولكن بما أنه يلتزم بزواية أنيس ويلتحم به فإنه يتحد معه، ويكتسب ملامحه الأساسية: الاحباط. مما يفسر لنا اختياره لهذا العنوان بالتحديد: ثرثرة فوق النيل، أي أنه مقتنع أن الرواية لن تستطيع فعل شيء، وبالتالي لن تكون أكثر من ثرثرة، كما أن احاديث اشخاصها على النيل، لن يعتبر أكثر من ثرثرة. وهكذا يعلن لنا نجيب محفوظ الذي ساهم إلى حد كبير عبر رواياته العديدة في تلمس معالم النهضة العربية، يعلن لنا بعد كل الروايات التي كتبها خيبته الكبرى واحباطه.

ولكننا نجد في فترات معينة وحساسة، ضمير المخاطب، حيث يخاطب أنيس نفسه ويستعمل ضمير «أنت»، كما في تداعي هارون الرشيد مثلاً «وأنت تصب له الخمر من إبريق من الذهب. ورق أمير المؤمنين حتى صار أصفى من الهواء وقال لك: هات ما عندك...» (ص ٤٩)، مما يتيح أن يكون الحديث موجهاً للمتلقى وبالتالي دمج شخصية أنيس والراوي وبذلك دفعه إلى الشعور بالاحباط الذي يسحق الاثنين روائياً والثلاثة فعلياً.

٩ - معالم البنية وتطوراتها

البنية التي تقدمها الرواية تتألف، ليس بشكل تراكمي، من

معالم معينة تحدد أطرها وهويتها. فما هي هذه المعالم؟ ما هو الأفق الذي تتطلع إليه؟ وهل توصلت إليه؟

١ - طالعنا في الرواية ثورة مصادرة ترخي ثقلها على المجتمع، ولسنارغبة عنيفة لدى المثقفين في الخلاص منها ولا مبالاة الافراد العاديين بما يجري، وقد تجسّد الأفق في محورين: الأول هو إدراك قائد هذه الثورة حقيقة ما يقوم به اعوانه، والثاني هو حلول ثورة بديلة جذرية وذات طابع ديني. مع التأكيد أنها ليسا طريقتين مختلفين بل هما خطوتان متكاملتان. ففي تداعي تحتمس الثالث دعوة صريحة للتخلي عن اخته حشيشوت والانفراد بالحلم. فمن هي حشيشوت التي قصدتها الرواية؟ هل هي روسيا بكل ما تمثله؟ إن البحث عن قرينة لن يصل إلى شيء ولكن النص بكامله يؤكد ذلك، عبر مطالبته الرئيس بالقيام بثورة بديلة ذات وجه ديني محلي. ولكن الرواية انفلقت دون أن يتم أي تغيير.

٢ - المجتمع القائم هو المجتمع المصري بين ١٩٢٤ و ١٩٦٤ أي بعد ثورتي ١٩١٩ و ١٩٥٢، وقبل هزيمة ١٩٦٧ وحرب ١٩٧٣، وهو مجتمع مصاب بشروخ عميقة، فربيعه غبار وأكاذيب، ومع ذلك فهو مجتمع متواطئ وسلي، إذ أنه في انتظار التغيير يفرق في الفردية والانتهازية والتزلف والعبثية. افق هذا المجتمع، مجتمع جديد أكثر عدالة وفعالية، ولكن الرواية انتهت دون حصول أقل تبديل في بنية المجتمع.

٣ - عالم العوامة يبأسه وعبثيته عنصر بارز في المجتمع. ورغم وجود تصد كبير له، حتى أن ثورة سارة قائمة في أساسها على مواجهة العبث، فإن عالم العوامة يبقى راسخاً، فالعوامات تملأ شاطئ النيل.

٤ - العلاقات بين الافراد علاقات هشة، افقها المصلحة الفردية، فعلاقة الرجل بالمرأة تتوزع في ثلاث فئات هي الحياة والاستغلال والكتب. وعلاقة الرجل بالرجل تتحدد بالسيطرة أو التزلف أو الوصولية. وعلاقة المرأة بالرجل إما أن تؤدي إلى حب فاشل أو انتقام أو وصولية أو انتحار. وعلاقة المرأة بالمرأة علاقة سلبية قائمة على الغيرة أو الخدر أو التشفي. وتنتهي الرواية دون أي تغير في طبيعة هذه العلاقات.

٥ - علاقة واحدة تتميز بإيجابية محدودة، هي علاقة أحمد نصر المؤمن بزوجه، ولكن الرواية لا تقدم أي تحليل حاسم لوجود الزوج في العوامة، كما أن أي تغيير لا يطراً على هذه العلاقة.

٦ - السلطة في هذا المجتمع جهاز قمعي عنيف، ويعكس ذلك بوضوح علاقة المدير العام بأنيس. ففي الوقت الذي لا يهتم فيه بسبب لحوء أنيس إلى التحشيش، يحيله إلى النيابة الادارية تمهيداً لفصله من العمل لأنه صرخ في وجهه ورماه بالنشافة. ولا تهم هذه السلطة بالمجتمع بل تهم بالمحافظة على نفسها كما يبدو ذلك واضحاً من مراقبتها المفيقين لا المساطيل، لأن أي خطر حقيقي سيتعرع في صفوف المفيقين الذين لم يقبلوا بعالم العوامة كحل لما يعانون منه. ويتجسد الأفق في أن يعي الرئيس حقيقة ما يجري، ولكن ذلك لم يحدث.

٨ - ٢ - ٣ ضمير القصص

طريقة القصص التي تستعمل صيغة المفرد المذكر الغائب تشير إلى أن هناك راوياً للأحداث هو الأديب نفسه. ولكن بما أنه يلتزم بزواية أنيس ويلتحم به فإنه يتحد معه، ويكتسب ملامحه الأساسية: الاحباط. مما يفسر لنا اختياره لهذا العنوان بالتحديد: ثرثرة فوق النيل، أي أنه مقتنع أن الرواية لن تستطيع فعل شيء، وبالتالي لن تكون أكثر من ثرثرة، كما أن احاديث اشخاصها على النيل، لن يعتبر أكثر من ثرثرة. وهكذا يعلن لنا نجيب محفوظ الذي ساهم إلى حد كبير عبر رواياته العديدة في تلمس معالم النهضة العربية، يعلن لنا بعد كل الروايات التي كتبها خيبته الكبرى واحباطه.

ولكننا نجد في فترات معينة وحساسة، ضمير المخاطب، حيث يخاطب أنيس نفسه ويستعمل ضمير «أنت»، كما في تداعي هارون الرشيد مثلاً «وأنت تصب له الخمر من إبريق من الذهب. ورق أمير المؤمنين حتى صار أصفى من الهواء وقال لك: هات ما عندك...» (ص ٤٩)، مما يتيح أن يكون الحديث موجهاً للمتلقى وبالتالي دمج شخصية أنيس والراوي وبذلك دفعه إلى الشعور بالاحباط الذي يسحق الاثنين روائياً والثلاثة فعلياً.

٩ - معالم البنية وتطوراتها

البنية التي تقدمها الرواية تتألف، ليس بشكل تراكمي، من

معالم معينة تحدد أطرها وهويتها. فما هي هذه المعالم؟ ما هو الأفق الذي تتطلع إليه؟ وهل توصلت إليه؟

١ - طالعنا في الرواية ثورة مصادرة ترخي ثقلها على المجتمع، ولسنارغبة عنيفة لدى المثقفين في الخلاص منها ولا مبالاة الافراد العاديين بما يجري، وقد تجسّد الأفق في محورين: الأول هو إدراك قائد هذه الثورة حقيقة ما يقوم به اعوانه، والثاني هو حلول ثورة بديلة جذرية وذات طابع ديني. مع التأكيد أنها ليسا طريقتين مختلفين بل هما خطوتان متكاملتان. ففي تداعي تحتمس الثالث دعوة صريحة للتخلي عن اخته حشيشوت والانفراد بالحلم. فمن هي حشيشوت التي قصدتها الرواية؟ هل هي روسيا بكل ما تمثله؟ إن البحث عن قرينة لن يصل إلى شيء ولكن النص بكامله يؤكد ذلك، عبر مطالبته الرئيس بالقيام بثورة بديلة ذات وجه ديني محلي. ولكن الرواية انفلقت دون أن يتم أي تغيير.

٢ - المجتمع القائم هو المجتمع المصري بين ١٩٢٤ و ١٩٦٤ أي بعد ثورتي ١٩١٩ و ١٩٥٢، وقبل هزيمة ١٩٦٧ وحرب ١٩٧٣، وهو مجتمع مصاب بشروخ عميقة، فربيعه غبار وأكاذيب، ومع ذلك فهو مجتمع متواطئ وسلي، إذ أنه في انتظار التغيير يفرق في الفردية والانتهازية والتزلف والعبثية. افق هذا المجتمع، مجتمع جديد أكثر عدالة وفعالية، ولكن الرواية انتهت دون حصول أقل تبديل في بنية المجتمع.

٣ - عالم العوامة يبأسه وعبثيته عنصر بارز في المجتمع. ورغم وجود تصد كبير له، حتى أن ثورة سارة قائمة في أساسها على مواجهة العبث، فإن عالم العوامة يبقى راسخاً، فالعوامات تملأ شاطئ النيل.

٤ - العلاقات بين الافراد علاقات هشة، افقها المصلحة الفردية، فعلاقة الرجل بالمرأة تتوزع في ثلاث فئات هي الحياة والاستغلال والكتب. وعلاقة الرجل بالرجل تتحدد بالسيطرة أو التزلف أو الوصولية. وعلاقة المرأة بالرجل إما أن تؤدي إلى حب فاشل أو انتقام أو وصولية أو انتحار. وعلاقة المرأة بالمرأة علاقة سلبية قائمة على الغيرة أو الخدر أو التشفي. وتنتهي الرواية دون أي تغير في طبيعة هذه العلاقات.

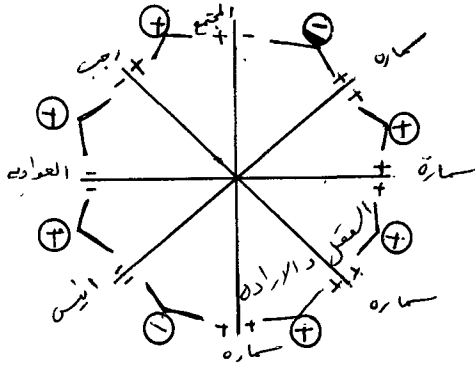
٥ - علاقة واحدة تتميز بإيجابية محدودة، هي علاقة أحمد نصر المؤمن بزوجه، ولكن الرواية لا تقدم أي تحليل حاسم لوجود الزوج في العوامة، كما أن أي تغيير لا يطراً على هذه العلاقة.

٦ - السلطة في هذا المجتمع جهاز قمعي عنيف، ويعكس ذلك بوضوح علاقة المدير العام بأنيس. ففي الوقت الذي لا يهتم فيه بسبب لحوء أنيس إلى التحشيش، يحيله إلى النيابة الادارية تمهيداً لفصله من العمل لأنه صرخ في وجهه ورماه بالنشافة. ولا تهم هذه السلطة بالمجتمع بل تهم بالمحافظة على نفسها كما يبدو ذلك واضحاً من مراقبتها المفيقين لا المساطيل، لأن أي خطر حقيقي سيتعرع في صفوف المفيقين الذين لم يقبلوا بعالم العوامة كحل لما يعانون منه. ويتجسد الأفق في أن يعي الرئيس حقيقة ما يجري، ولكن ذلك لم يحدث.

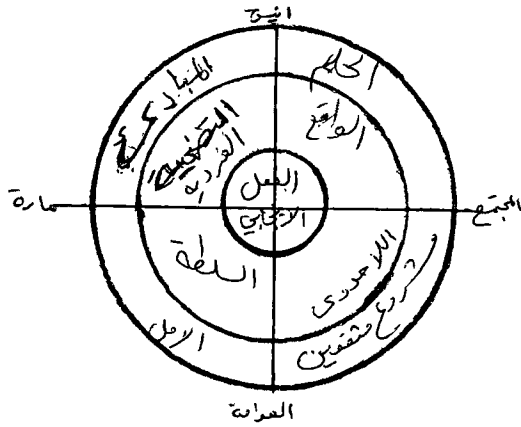
٩ - معالم البنية وتطوراتها

البنية التي تقدمها الرواية تتألف، ليس بشكل تراكمي، من

- ٥- تعتمد سمارة على اصلاح الافراد لإصلاح المجتمع، عاكسه بذلك المنحى الثوري، وهو ما اهتمها به افراد العوامة.  
٦- تعتبر سمارة العبث سبباً لفساد المجتمع، بينما هو في الحقيقة نتيجة لأسباب عميقة، ولا شفاء من هذا الشعور العبثي إلا بمعالجة الأسباب التي تأتي عنها. وقد حدد مفهوم سمارة الخاطيء مسارها الثوري فتوجهت لمقارعة عالم العوامة بدلاً من المجتمع وسلطته.



- ٧- حقيقة وضع سمارة تختلف كلية عن نظرتها إليه. فالمجتمع سلبي في عمقه نتيجة لاستلابه. وسمارة تمتلك جانباً سلبياً، في حين أن أنيس يمتلك جانباً إيجابياً. وبذلك نجد أن الوضعية الحقيقية لسمارة هي ست علامات سلبية (-) وعلامتان إيجابيتان (+)، مما يقبل الوضعية إلى العكس تماماً ويظهر أن سمارة منذ البداية غير مؤهلة للعب أي دور.



- ٨- الاحباط الذي ازداد عدده مع احباط سناء وسمارة ورجب يتعلق بقناعات المجابهة وكيفية ونوعيتها وماهيتها. فإذا كان من البديهي أن يقف الواقع حاجزاً بين الحلم وتحققه، وأن تنتصب السلطة في وجه آمال الفئات الشعبية، فإن تحقيق المبادئ يقتضي تضحية وهو ما لا نلمحه عند أنيس أو سمارة. فالاعتراف بالجريمة تقتضي تضحية فردية، ليست عبثية، بل بها يتم انقاذ المبادئ. فأنيس وسمارة اللذان يرفضان الوصلية والأناية والأساليب الفردية للوصول للوحدانية كذلك التضحية الفردية لأنها لا ترتبط بضمن مباشر في أحسن الأحوال. كما أن اللاجدوى التي تكون الرؤية ناتجة بدورها عن مشروع مثقفين وليس عن تحرك الجماهير التي لا تعرف حركتها اللاجدوى بدليل سيرورة التاريخ البشري بكامله.

بيروت

تألف الرسالة التي تحملها البنية من الاشارات التالية:  
١- المجتمع المصري مصاب بشرح عميق وفي حالة خطيرة من السلبية.

٢- احباط الإنسان المصري ليس آنياً فقط بل هو شامل كل الفترات التاريخية.  
٣- الثورات في هذا المجتمع تحور دائماً عن مسارها، مما يؤكد عبثية كل محاولة اصلاحية فيه.

٤- المسؤول عن التحريف ليس الرئيس عبد الناصر (الذي لا تسميه باسمه الرواية) بل هو الجهاز الذي يعتمد عليه.. وقد برهنت جميع الأحداث التي تلت، من هزيمة حزيران، إلى الحالة التي وصلت إليها مصر بعد وفاة الرئيس عبد الناصر وما ترتب على ذلك من وصول الجهاز المشكو منه إلى قمة السلطة وقيادة الثورة - اظهرت هذه الأحداث كلها مدى الرؤية الاستشرافية التي تتمتع بها هذه الرواية.

٥- الثورة الحقيقية سيقوم بها الشعب.  
٦- زيف ايمان مدعي الايمان وضرورة العودة إلى الروح الدينية الصحيحة.

٧- عجز المثقفين عن لعب أي دور طليعي.  
٨- أهمية التضحية دون المطالبة بضمن مباشر. والسؤال الذي يطرح نفسه علينا بقوة هو: أليس من السخف أن تعترف سمارة بهذه الجريمة؟ إن جواب القارئ بالاجاب يدل على مدى السلبية التي تسيطر عليه. وهنا يبرز السؤال الثاني: من هو القارئ الذي شعر بأن على سمارة أن تعترف معها كان الثمن؟  
١١- ملاحظات:

بعد معرفة ما حدث، يصبح السؤال الهام هو: لماذا حدث ما حدث؟ وهو ما نحاول تلمسه في هذه الملاحظات.  
١- ثورة أنيس ليست ثورة متكاملة بل هي شعور مثقف من أجل الجماهير ولها، وليس معها وبها.  
٢- لا نلمح أي تواصل لأنيس مع الفئات الشعبية رغم كونه أحد افرادها. فنشاطه اقتصر كما صورته الرواية على المشاركة في التظاهرات، وقد تكون طالبية لاسيا وأن مصطفى راشد كان معه، وعلى التعرض للاعتقال والقتل قبل الثورة. ثم لا نجد أيّ تواصل مع افراد المجتمع بعد يأسه من الثورة.

٣- علاقة أنيس بعم عبده لم تخرج أيضاً عن هذا الاطار، فالشعور الايجابي الوحيد الذي تقع عليه في الرواية هو احساس أبس بالشفقة على عم عبده وعزمه على تزويده بغطاء قبل النساء، في حين أن عم عبده يسكن في غرفة حقيرة، لا تكاد تسعه، عندما يقف يعلو بهامته سقفها، مما يجعله شبيهاً بكلب.

٤- تنتمي سمارة إلى الشريحة الثقافية نفسها، فاتصالها بأفراد المجتمع يتم عبر مفالاتها، واحتكاكها بالعمال كان على شكل زيارة لكتابة مقال بلا شك، وهو ما يعمق النظرة إلى هذا التيار الثقافي، ولكنه يفتقر الرواية، لأننا لا نجد منحى مختلفاً، وهو ما يجد تبريره في كون الرواية تغوص في عمق تيار ثقافي نهضوي ولا تدعي تصوير كافة التوجهات.